

محطات مشرقة من تاريخ المماليك عين جالوت أنموذجاً
Bright Stations from the History of the Mamluks
Ain Jalut as a Model

الدكتور: عمر سي عبد القادر

Si Abdelkader Omar

جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان (الجزائر) / si62sh@yahoo.com

تاريخ النشر: 2022/01/25

تاريخ القبول: 2021/12/07

تاريخ الاستلام: 2021/07/23

الملخص:

تتناول هذه الدراسة إحدى المراحل التاريخية الهامة من تاريخ الأمة الإسلامية وهي مرحلة حكم المماليك في مصر، هذه الدولة التي أسسها الرقيق الآسيوي بعد ضعف الدولة الأيوبية، وتعتبر شجرة الدر أول ملك يحكم المماليك، ومن أبرز المحطات الهامة في تاريخ المماليك معركة عين جالوت، التي تمكن من خلالها السلطان قطز ثالث سلاطين المماليك من وقف الزحف المغولي على البلاد الإسلامية سنة 658هـ / 1260م، وذلك بعد أن سيطر المغول على العديد من أقاليم المشرق الإسلامي، وتمكنوا من الاستلاء على بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وبفضل هذا الانتصار فرض المماليك سيطرتهم على المشرق الإسلامي وحالوا دون توسع المغول والصليبيين في البلاد الإسلامية، وقد تحول هذا الانتصار إلى ملحمة تاريخية يحق للمماليك الافتخار بها، إلا أن الصراع على السلطة الذي شاع أيام المماليك أدى إلى مقتل بطل عين جالوت على يد أحد المماليك.

الكلمات المفتاحية: المماليك، المغول، عين جالوت، السلطان قطز، الانتصار.

Abstract:

This study deals with one of important historical stages in the history of the Islamic nation, the Mamluk rule in Egypt. The Asian slaves founded this country after the fall of the Ayyubid state. The Alder Tree is the first king to rule the Mamluks. One of the most important state in the history of the Mamluks is the Battle of Ain Julut, through which Sultan Qutuz, the third Mamluk Sultan, stopped the Mangol advance into the Islamic country in 658 AH/1260. Later, the Mangol took control of many Arab territories and managed to capture Baghdad, the capital of the Abbasid Caliphate. However, the Mamluks took control of Arab countries and prevented the expansion of Mongols and crusaders into the Arab territories.

Keywords: The Mamluks, the Mongols, Ain Julut , Sultan Qutuz, the Victory.

المؤلف المرسل: د. عمر سي عبد القادر، الإيميل: si62sh@yahoo.com

1. مقدمة:

إن المتتبع لتاريخ المشرق الإسلامي بعد سقوط الدولة الفاطمية، يدرك أن الصراعات السياسية والتنافس والضعف مكن الصليبيين من القضاء على العديد من الامارات العربية، بل وصل بهم الأمر الى تهديد بلاد الشام، و كاد الصليبيون أن يسيطروا على بلاد الشام لولا ظهور بعض الزعمات التي تبنت الجهاد لتوقيف هذا المد الصليبي، وكان ابرزهم ملوك بني أيوب، الا أن الصراعات والانقسامات خاصة بعد صلاح الدين الايوبي قد اعادت المنطقة الى الضعف والتدهور، خاصة وأن العديد من ملوك بني أيوب قد اعتمدوا على الرقيق الاسيوي في صراعاتهم الداخلية، مما مكن هؤلاء من الوصول الى الحكم وتأسيس دولة المماليك بداية من شجر الدر التي تعتبر أول ملك يحكم مصر من المماليك.

ورغم أن المماليك عبارة عن رقيق واصلهم من الاتراك الا أن هذه الدولة قدمت خدمة جليلة للمشرق الإسلامي، فقد تمكن المماليك من بسط نفوذهم على بلاد المشرق والحجاز، ومن جهة أخرى فقد واجهوا الصليبيين بحزم كبير، وقد خاض المماليك حروب كثيرة لمواجهة الحركة الصليبية، وفي الوقت نفسه فقد اخذ المماليك أيضا على عاتقهم مواجهة الهجمات المغولية على المشرق الإسلامي، ومن أبرز تلك المواجهات الحاسمة موقعة عين جالوت بقيادة المظفر قطز والتي تعتبر بحق مفخرة المماليك.

لقد كان لهذه الموقعة أهمية بالغة في تاريخ المشرق الإسلامي ودولة المماليك، وهذا ما سنحاول معالجته في هذه الدراسة من خلال الإجابة على بعض التساؤلات حول هذه الملحمة ومنها، ماهي الظروف التي ساعدت المماليك على مواجهة المغول؟ وإلى أي مدى ساهمت هذه الموقعة في انقاذ بلاد المشرق الإسلامي من هجمات المغول خاصة بعد سقوط بغداد؟ وهل فعلا ان عين جالوت كانت مفخرة المماليك في وقف الخطر المغولي؟

وعند الإجابة على هذه الأسئلة سندرك حتما أن هذه الموقعة قد قضت على أحلام المغول في السيطرة على العالم الإسلامي، بل وحتى احلامهم في الوصول الى اوروبا، كما أن القضاء على شوكة المغول قد مكن المماليك أيضا من القضاء نهائيا على الصليبيين في بلاد الشام، ومن جهة أخرى فإن عين جالوت قد اعادت التوازن السياسي والاجتماعي للمنطقة، خاصة بين المسلمين والأقليات المسيحية، كما مكنت أيضا من إعادة الوحدة بين مصر وبلاد الشام بعد التمزق الذي عرفته المنطقة في أواخر الدولة الأيوبية، وتهدف هذه الدراسة الى ابراز دور المماليك في الحفاظ على العالم الإسلامي، إضافة الى ابراز أهمية معركة عين جالوت في التاريخ الإسلامي.

2- قيام دولة المماليك في مصر 648-922هـ/1250-1517م

لقد عرفت بلاد المشرق الإسلامي تحولات هامة افرزتها عدة تطورات، أبرزها نشاط الحركة الصليبية ووصولها الى بلاد الشام والقضاء على العديد من الامارات الصغرى، وفي هذا الوقت كانت الدولة الفاطمية قد فقدت هيبتها واتجهت نحو الانهيار، هذه الأوضاع دفعت بعض الزعمات الى تبني الجهاد لاسترداد ما اخذه الصليبيون ومن هؤلاء عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود وبمشاركة صلاح الدين الايوبي، الذي تمكن بفضل ذكائه وحنكته من استمالة الناس اليه حيث تمكن من القضاء على الدولة الفاطمية ثم واجه الصليبين واستعاد بيت المقدس سنة 583هـ/1181م في معركة حطين، بعد أن قضى على الامارات المسيحية، هذه الأخيرة التي كانت قد تلقت الدعم من البابا الذي عمل كل ما في وسعه للسيطرة على مص، (Poole, 1925, p. 218) وقد تمكن صلاح الدين من بسط نفوذه على بلاد المشرق الإسلامي، فنشر العدل وحكم بالقسط بين الرعية، ثم بنى المدارس وأجرى الارزاق على العلماء والصلحاء كما بنى قلعة القاهرة وفتح العديد من الحصون والقلاع وبذلك يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الأيوبية (السيوطي، 1968، صفحة 20)

أما أحوال المشرق بعد صلاح الدين تميزت بالانقسام والتشتت حيث ظهرت وحدات سياسية يحكمها ابناء الاسرة الأيوبية، وكانت مصر أهم هذه الامارات، الا انه ورغم هذا التشتت فقد تمكنت الدولة الايوبية من الوقوف في وجه الصليبيين لعدة سنوات، هذه المواجهة ساهمت في تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية للدولة مما فتح المجال أمام المماليك (ينظر التعليق رقم 1). للوصول الى الحكم. (جب، 1995، صفحة 203).

ويعود استخدام الرقيق الأبيض في الجيوش الإسلامية الى العهد العباسي، حيث اعتمد بعض الخلفاء على الممالك لتوطيد نفوذهم وسلطانهم، وفي عهد الدولة الأيوبية استمر هذا التقليد وعمل الحكام على الاكثار من شراء المماليك وتربيتهم والاعتناء بهم ليكونوا سند لهم في الصراعات الداخلية خاصة، فالسلطان نجم الدين أيوب (ينظر التعليق رقم 2) أكثر من شراء الممالك حتى أصبح أكثر جيشه منهم، وقد اختار لهم جزيرة الروضة في نهر النيل لتكون مركزاً لهم ولهذا سميت هذه الفرقة بالممالك البحرية، (المقريزي، الخطط المقريزية، 1998، صفحة 236) وقد كان لهذه الفرقة دور كبير في تحقيق الانتصار على الصليبيين لذلك زاد نفوذهم واصبحوا أصحاب الفضل في انقاذ البلاد.

وبعد وفاة نجم الدين أيوب في حملته على الصليبيين سنة 647هـ/1249م خلفه ابنه توران شاه، الا أنه وبسبب معاملته السيئة للمماليك وخاصة زوجة أبيه، هذه الأخيرة حرصت المماليك على قتله سنة 648هـ/1250م

وبذلك انتهت دولة بني أيوب، (المقديسي، 1962، صفحة 158) وبعد هذه الحادثة اجتمع الامراء واهل المشورة واتفقوا على تنصيب شجر الدر (ينظر التعليق رقم 3) ملكة على مصر، وبما انها كانت من ناحية الأصل أقرب الى المماليك اعتبرت أول ملك يحكم مصر من المماليك، ومن اجل إضفاء الشرعية على حكمها بعد ان عانت من المعرصة الشديدة باعتبارها اول امرأة تحكم المسلمين لذلك تزوجت من الأمير عز الدين ايبك، وبهذا بدأت مرحلة حكم المماليك، هذه الدولة التي مرت بمرحلتين، المماليك البحرية من سنة 648هـ/1250م الى غاية 784هـ/1282م، ثم بدأت مرحلة المماليك البرجية وهي طائفة جديدة من الجركس او الشركس وهم من القوقاز اسكنهم السلطان قلاوون أبراج القلعة، وقد استمرت هذه السرة في حكم بلاد المشرق الى غاية ظهور الدولة العثمانية، حيث تمكنت من القضاء على المماليك في بلاد الشام في معركة مرج دابق سنة 922هـ/1516م، ثم القضاء عليها في مصر في معركة الريدانية سنة 923هـ/1517م في عهد السلطان طومان باي. (حسن، 2000، صفحة 32)

وقد ساهمت عوامل كثيرة في ضعف دولة المماليك، من أبرزها ضعف السلاطين حيث غابت العدالة في الحكم وظهر التهافت نحو كسب المال، فتدهورت الأوضاع الاقتصادية وارتفعت النفقات، خاصة تلك المخصصة للجيش، ومن العوامل أيضا انتشار الامراض والابوة والتي فتكت بخلق كثير، إضافة الى الصراعات بين افراد المماليك وكثرة الدسائس والمؤامرات للوصول الى السلطة، وهذا ما أدى الى عدم الاستقرار، (عاشور ا.، 1996، صفحة 294) اما العوامل الخارجية فكان أبرزها الحروب الصليبية التي انتهجتها أوروبا المسيحية الحاقدة على الإسلام، والتي أدت الى اضعاف القوة العسكرية المملوكية، كما تأثرت دولة المماليك بتحول الطرق التجارية الى رأس الرجاء الصالح وسيطرت الإمارات المسيحية على الطرق التجارية، فتراجعت الموارد المالية، (اباضة، د ت ، صفحة 48) اما العامل الخارجي الاخر فهو ظهور الدولة العثمانية والتي توسعت على حساب العالم الإسلامي.

3- التعريف بالمغول.

نشأ المغول في الهضبة المعروفة باسم منغوليا، وهي تمتد من أواسط آسيا جنوبي سيبيريا وشمال التبت وغربي منشوريا، بين جبال التأي غربا وجبال خنجان شرقا، وفي هذه المنطقة كانت قبائل المغول مستقلا بعضها عن بعض، وكانت العلاقة بين هذه القبائل علاقة صراع وحروب، وفي احدى هذه القبائل نشأ جنكيزخان مؤسس امبراطورية المغول. (المعطي، 1980، صفحة 30)

لقد استطاع جنكيز خان توحيد القبائل المغولية تحت سلطته، وكان في البداية خاضعا لسلطة الصين ويدفع الجزية لهم، ثم تحرر من تلك التبعية بعد ان وحد القبائل المغولية وعمل على التوسع على حساب الأراضي

الصينية، (M LE BARON, 1852, p. 135) وبعدها دخل في صراع مع الدولة الخوارزمية في عهد السلطان محمد خوارزم الذي لم يتمكن من الصمود امام جنكيزخان، هذا الأخير توسع على حساب المدن الخوارزمية، ورغم ان جلال الدين بن محمد الخوارزمي قد واصل الدفاع عن مملكته الا انه لم يتمكن هو أيضا من وقف الزحف المغولي، مما اضطره العبور نهر السند متجها نحو الهند، الا ان جنكيز خان قتل كل أولاده الذكور، وبذلك انتهت المقاومة الفعلية للدولة الخوارزمية. (سليمان، 1984، صفحة 26)

وبعد وفاة جنكيزخان سنة 624هـ / 1227م استمر ابنائه في التوسع على حساب العالم الإسلامي وخاصة على حساب الدولة العباسية، التي كانت قد دخلت في مرحلة الضعف في عهد الخليفة الناصر لدين الله، حيث دخلت في صراع مع الدولة الخوارزمية ودولة السلاجقة، إضافة الى الانقسامات والصراعات الداخلية، مما جعلها غير قادرة على التصدي لهجمات المغول، رغم محاولة المعتصم الذي خلف المستنصر بالله توحيد جهود الأيوبيين والمماليك في مصر والشام لرد الغزو المغولي، الا ان المغول تمكنوا من دخول بغداد في يناير 1358م/656هـ بقيادة هولاكو احد احفاد جنكيزخان، حيث عاثوا فيها فسادا وتقتيلا وتدميرا واحراقا، لينتهي الغزو بسقوط بغداد ومقتل الخليفة العباسي المعتصم واثنين من أبنائه، واستولوا على ما جمعه الخلفاء العباسيون خلال خمسة قرون. (بردي، 1992، صفحة 50)

لقد اشارت بعض المصادر الى أن عدد القتلى تجاوز ثمانمائة ألف قتيل، ولم يسلم من هذه المذابح الا المسيحيين بسبب العلاقة الودية التي كانت تربط هولاكو بالقوى المسيحية، خاصة وان زوجته كانت مسيحية، بل أن البعض يرى أن الأوروبيين قد شاركوا في محاربة الدولة العباسية، لذلك هناك من يجعل هذه الحملة تحالف بين المغول والصليبيين ضد المسلمين، (عاشور ع.، 1976، صفحة 48) ومن أبرز النتائج التي ترتبت عن سقوط بغداد، هو انه رغم أن الدولة العباسية كانت قد ضعفت واصابها الانقسام والتفكك الا انها كانت تمثل الوحدة الإسلامية، كما تراجع دور بغداد كمركز للثقافة الإسلامية بعد احراق العديد من الكتب والمؤلفات ورميها في نهر دجلة من طرف المغول حتى اصبح ماء دجلة اسود من مدادها (لويون، 2012، صفحة 194)، وانتقلت الزعامة الثقافية الى القاهرة، كما اعطى هذا السقوط الفرصة للفرس بالتوسع ونشر مذهبهم اكثر، ومن جهة أخرى فقد سارع حكام بعض الأقاليم الإسلامية الى تقديم الولاء والهدايا لهولاكو، واسرع البعض الآخر الى التحالف معه لتحقيق أطماعهم السياسية، وهذا ما سهل على المغول التوغل اكثر في البلاد الإسلامية وخاصة بلاد الشام ومصر. (خلدون ع.، 2000، صفحة 613) وبعد استلاء هولاكو على بغداد واصل سيره شمالا واستولى على حلب، حيث

لم يستطيع بنو أيوب وقف هذا الزحف، ثم سقطت دمشق سنة 658هـ، ومنها تقدمت جيوش التتار الى غزة ومنها نحو مصر، (العريني، د ت ، صفحة 48) وكان هدف المغول هو الاستلاء على المشرق الإسلامي والقضاء على كل قوة يمكنها منافستهم في المنطقة، فبعد احتلال بلاد الشام بعث هولاكو برسالة الى المماليك يهددهم فيها ويدعوهم الى الاستسلام، ولكن بعض القادة وعلى رأسهم المظفر قطز والظاهر بيبرس اصرا على المواجهة ولذلك تم الاتفاق على قتل رسل هولاكو. (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، 1997، صفحة 515)

4 - معركة عين جالوت. (ينظر التعليق رقم 4)

لقد كان موقف قطز من هذه التهديدات هو الاستعداد للمواجهة حيث عمل على اقناع الامراء على المواجهة بعد أن امن الجبهة الداخلية، ثم عمل على جمع الأموال لتجهيز الجيش، بعد ان افتاه الفقيه العز بن عبد السلام بجواز فرض الضرائب واخذ ثلث الزكاة، (الشرقاوي، 1996، صفحة 98) وبهذه الطريق تمكن السلطان قطز من جمع ستمائة ألف دينار لتجهيز الجيش المملوكي لمواجهه المغول، ثم دخل في مرحلة التحضير النفسي حيث استدعى الامراء وحثهم على النفير، ولما أحسن منهم الخذلان خاطبهم بقوله " يا امرء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني ومن لم يختار ذلك يرجع الى بيته، فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين" ثم ركب السلطان وقال " انا القى التتار بنفسي" فلما رأى الامراء مسير السلطان ساروا على كره. (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، 1997، صفحة 516)

وبعد ذلك عهد السلطان قطز الى الأمير بيبرس البندقداري بأن يتقدم الى بلاد الشام مع فرقة من الجيش لاستطلاع أخبار المغول، ولما دخل غزة انسحبت فرقة المغول منها، ثم لحق به المظفر قطز ومنها اتجها الى عكا على طريق الساحل، حيث عمل على كسب تأييد الصليبيين وأن يضمن عدم تحالفهم مع المغول، خاصة أن المغول كانوا قد استولوا على صيدا التي كانت تخضع للصليبيين، ولهذا رأى الصليبيون أن المغول أكثر خطرا أن المماليك أهون منهم، (وليام، 1995، صفحة 44) وهكذا نجحت خطة المظفر قطز في ضمان حياد الصليبيين، ويتفرغ للمغول.

14. سير المعركة. تعتبر معركة عين جالوت من لأهم المعارك التي عرفها التاريخ الإسلامي، نظرا لما ترتب عليها من نتائج حاسمة لتاريخ المشرق الإسلامي، فقد أوقفت الزحف المغولي الذي كان يهدد البلاد الإسلامية.

ففي شهر شعبان سنة 658هـ / 1260م نزل السلطان الملك المظفر قطز من قلعة الجبل الى الريدانية ثم رحل عنها الى الصالحية، حيث لحقت به جميع الفرق العسكرية ليتجه بعد ذلك الى عين جالوت، وفي هذا الوقت كانت طلائع القوات المغولية بقيادة نائب هولاكو على الشام القائد كتبغا نوين، وبمساعدة بعض الايوبيين الذين تعاونوا مع

المغول وخاصة امير حمص، ولهذا بعث الملك قطز رسالة الى هذا الأمير يوبخه ويغريه بان يرد إليه حمص والرجبة وتدمر اذا هو انسحب عن المغول، وبهذا ضمن كذلك تراجع بعض الأمراء ووقوفهم الى جانب قطز، وبعدها واصل التحضير للمعركة الفاصلة.

وفي هذا الوقت وصلته معلومات هامة عن استعداد جيش المغول، حيث جاء رجل من اهل الشام كان مرسل من طرف صارم الدين أبيك الذي كان قد أسره هولاءكو عند غزوه لبلاد الشام، واستمر في خدمة المغول، ومن أبرز ما جاء في هذه المعلومات الاستخبارية، أن جيش هولاءكو ليس بالقوة المعهودة بل تراجعت قوته ولم يعد ذلك الجيش الذي دخل بلاد الشام، كما ان ميمنة جيش المغول اقوى من ميسرتهم لذلك على المسلمين تقوية ميسرة الجيش الإسلامي، (الصلاحي، 2009، صفحة 120) إضافة الى أن أمير حمص سيكون مع جيش المغول ثم ينقلب الى صف المسلمين وبعد هذا الاستعداد أرسل السلطان قطز حملة استطلاعية بقيادة ركن الدين بيبرس لجمع الاخبار وتحديد مكان العدو، قبل ان يلحق به قطز بالجيش الرئيسي، ومن أبرز النقاط الاستراتيجية لخطة الممالك، أن قسم الجيش الى قسمين، قسم رئيسي يقوده الأمير ركن الدين بيبرس، وقد اخفى معظم الجيش وراء التلال وأظهر فرقا من الفرسان في المواجهة لتنهزم امام المغول كي تجرهم الى ارض المعركة وتكون المفاجئة بعد ذلك، وهذه الخطة تختلف عما كان يشاهد في حروب المسلمين ضد المغول، (منصور، 1998، صفحة 182) أما الخطوة الثانية في الخطة العسكرية فهي تقسيم الجيش الى مجموعات عسكرية كان عدد جنود كل مجموعة 400 جندي بقيادة أمير من كبار الأمراء، وكل فرقة لها زيتها وشكلها الخاص، وربما أراد قطز من هذه الخطة هو خلق التنافس بين الأمراء وإدخال الرهبة في نفوس جنود العدو. (العبادي، 1986، صفحة 267)

وفي يوم 25 رمضان سنة 658هـ سبتمبر 1260م التقى الجمعان وذلك بعد طلوع الشمس، وبذات المعركة بين الطرفين حيث حدث في البداية اضطراب في صفوف المسلمين ودب الخوف في صفوفهم، مما دفع بالقائد قطز الى القاء خوذته من على رأسه وصرخ بأعلى صوته واسلاماه، ثم حمل على المغول بنفسه ويمن معه حملة صادقة، فكان النصر حليفه وقتل كتبغا قائد المغول، ولما تحقق النصر نزل السلطان قطز عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها ثم صلى ركعتين شكرا لله، (بردي، 1992، صفحة 79) وهكذا وبفضل شجاعة السلطان وخطته العسكرية الحكيمة الحقي الهزيمة بالجيش المغولي، وحرر بذلك المسلمين من الخرافة التي تقول أن المغول قوم لا يهزمون، والتي كان المغول قد استغلها لترهيب اعدائهم.

5- نتائج المعركة

- لقد ترتب عن هذه المعركة نتائج هامة خاصة على الجانب السياسي والعسكري، ومن أبرز تلك النتائج
- تغيير موازين القوى السياسية والعسكرية في المشرق الإسلامي، حيث اختفت الدويلات الأيوبية الصغيرة وظهرت دولة المماليك القوية كوريث شرعي لكل من الأيوبيين والعباسيين، فقد تمكن قطز من الاستلاء على بلاد الشام كلها وأصبحت دولته تمتد من الفرات إلى مصر.
 - إعادة إحياء الخلافة العباسية في القاهرة التي تحولت إلى العاصمة السياسية والعسكرية والثقافية للعالم العربي.
 - توقف التوسع المغولي في المشرق الإسلامي وظهور الخلافات والصراعات داخل الأسرة الحاكمة.
 - الخسائر البشرية الكبيرة في صفوف المغول، حيث قتل معظم قادة المغول وأسر البعض الآخر، إضافة إلى الغنائم الكبيرة التي حصل عليها المسلمون.
 - فشل سياسة الصليبيين في الشرق الأدنى الرامية إلى التحالف مع المغول ضد المسلمين وبالتالي زوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام.
 - حالت هذه الهزيمة دون تمكن المغول من غزو أوروبا، حيث كان هدف المغول هو الزحف إلى أوروبا وتخريبها بعد استلائهم على المشرق الإسلامي.

6- نهاية السلطان قطز.

بعد أن تمكن القائد قطز من تحقيق النصر على المغول، قام بتحرير بلاد الشام وفي ثلاثين من رمضان سنة 658هـ دخل قطز إلى دمشق واستقبله الناس استقبال الفاتحين، حيث عمل على تحقيق الأمن والاستقرار لجميع السكان باختلاف أديانهم ومللهم، (سليمان، 1984، صفحة 138) وبعد ذلك عزم على التوجه إلى حلب الإصلاح ما حدث من تدمير وتخريب على أيدي المغول، إلا أن بعض الأخبار وصلته تفيد بأن ركن الدين بيبرس وبعض الأمراء يستعدون للقيام بحركة ضده، خاصة وأن قطز كان قد عين مماليكه وانصاره على نيابات المدن الشامية وتناسى الدور الذي قام به بيبرس في حرب المغول في عين جالوت، مع العلم أنه كان قد وعده بنبأية حلب قبل معركة عين جالوت. (بردي، 1992، صفحة 82)

إن إعادة الأيوبيين السابقين إلى ولايتهم وتراجعهم عن وعده للظاهر بيبرس، جعل هذا الأخير لا يجد ذلك التقدير الذي كان ينتظره من قطز نظير ما أبداه من شجاعة في محاربة المغول، هذا الموقف أدى إلى تجدد الأحقاد من المماليك البحرية وخاصة بيبرس، مما دفعه إلى تدبير مؤامرة مع بعض زعماء البحرية لقتل قطز، (علي، 1996، صفحة 142) وكان هذا العمل سار عليه المماليك منذ البداية حيث كان الوصول إلى الحكم عادة ما يعتمد على

الاغتيالات وإن الحكم للأغلب، فبعد أن قرر المظفر قطز العودة إلى مصر، حيث كانت القاهرة تستعد لاستقباله كقائد حقق انتصاراً مشهوداً على المغول، وإثناء رحلته إلى مصر توقف ببلدة القصير مع عدد من خواصه بينما واصل الجيش المسير إلى الصالحية بمصر، فأقام السلطان خيمته السلطانية في هذه المنطقة لمزاولة الصيد والقنص، (عاشور ١، 1996، صفحة 200) ولما فرغ من الصيد تقدم له ركن الدين بيبرس وقد تظاهر برغبته في تقبيل يد السلطان، فقبض بيبرس يد السلطان ليمنعه من الحركة بينما انهال عليه بقية الأمراء بسيوفهم ورماحهم، وبهذا انتهت حياة بطل عين جالوت في ذي القعدة 658هـ / 1260م، بعد أن حكم أحد عشر شهراً وسبعة عشر يوماً قضاها في ترتيب أمور دولته ومحاربة الصليبيين والمغول. (الحنبلي، 1991، صفحة 504)

وإن اختلفت الروايات التاريخية في أسباب مقتل المظفر قطز، إلا أنها تتفق على أن الدولة المملوكية عرفت في مراحلها التاريخية ظاهرة الاغتيالات السياسية من أجل الوصول إلى السلطة، ومعظم هذه الروايات تؤكد على أن الأسباب ترتبط بالخلاف القديم بين أمراء الممالك البحرية والسلطان قطز، منذ أن شارك في مقتل قائد البحرية فارس الدين أقطاي في عهد السلطان عز الدين أيبك، إضافة إلى مشكل حرمان ركن الدين بيبرس من إحدى ولايات بلاد الشام، الذي كان قطز قد وعده بها.

وبعد مقتل السلطان قطز ركب ركن الدين بيبرس إلى قلعة الجبل وتلقى البيعة من الأمراء، وثبت نفسه في الحكم واتخذ لقب الظاهر، وقد شهدت الدولة في عهده أكبر توسعاتها فبلغت الشام والحجاز، حتى أصبح يُلقب بسلطان الديار المصرية والشامية والحجازية، (بيبرس، 2001، صفحة 83) وبعدها عمل على تأكيد شرعية حكمه من خلال إحياء الخلافة العباسية في مصر، ليتخذ منها سنداً لحكمه، فأرسل إلى أحد أبناء البيت العباسي بدمشق وهو أحمد بن الظاهر بن الناصر العباسي، واستدعاه إلى مصر واستقبله بحفاوة وعقد معه اجتماعاً دعى إليه العلماء والأمراء والقضاة، ليشهدوا صحة نسب الخليفة الجديد، ثم بايعه الظاهر بيبرس ولقب بالمنتصر بالله، وبعدها قام الخليفة بمنح تفويض بالسلطة الشرعية للظاهر بيبرس، وعندما أحس الظاهر بيبرس بمنافسة الخليفة له قام بإبعاده إلى بغداد، لا أن الخليفة قتل على يد المغول في طريقه إلى بغداد، ومرة أخرى استدعى الظاهر بيبرس أمير جديد وهو أبو العباس أحمد وبايعه بالخلافة، ومرة أخرى كذلك حصل منه على تقليد بالسلطنة سنة 622هـ / 1262م وتلقب الخليفة بالحاكم بأمر الله، ورغم هذا ظل الظاهر بيبرس هو صاحب السلطة الحقيقي بينما لقب أمير المؤمنين ظل يوصف به الخليفة العباسي، (الزبيدي، 2009، صفحة 27) ثم شرع في وضع سياسة جديدة لدولة الممالك البحرية، تهدف إلى صد الأخطار المغولية والصليبية عن بلاد الإسلام، وبهذه الطريقة انتقل الحكم من

المقتول الى القاتل الذي هو من المقربين منه وشاركاً معا في قتال الصليبيين والمغول، وبالتالي فإن الصراع على السلطة فرض منطقه على دولة المماليك.

7. خاتمة

إن معركة عين جالوت تعتبر بحق من أبرز المعارك في التاريخ الإسلامي، حيث حقق فيها المماليك انتصاراً تاريخياً في الوقت الذي كانت فيه القوى الإسلامية عاجزة عن وقف الزحف المغولي في المشرق الإسلامي، ومن خلال هذه الدراسة توصلت من خلال هذه الدراسة الى مجموعة من النتائج تبرز في معظمها عبقرية السلطان قطز وشجاعته وتمسكه بطريقة الجهاد لصد الهجمات الخارجية، إضافة الى أهمية وقيمة معركة عين جالوت في عيون المسلمين، ومن أبرز تلك النتائج.

- لقد نجح السلطان قطز في تحقيق أكبر انتصاراً يضاهاى الانتصارات الإسلامية في التاريخ الإسلامي.
- لقد استفاد المماليك من انتصار عين جالوت في دعم وتثبيت دولتهم وتحقيق مجدا كبيرا، رغم أنهم من المماليك تحصلوا على الحكم من اسيادهم الايوبيين.
- رغم أنهم ليسوا أصحاب السلطة الشرعيين في نظر البعض، الا ان هذه الموقعة جعلت الناس ينظرون إليهم على أنهم أنقذوا مصر وبلاد الشام والعالم الإسلامي من المغول.
- لقد كان انتصار عين جالوت الحد الفاصل للصراع بين الايوبيين والمماليك، كما انه ساعد على بروز دولة المماليك.
- أدى انتصار عين جالوت الى بروز شخصية المظفر قطز، حيث سارعت مدن الشام الى اعلان ولائها للسلطان قطز.
- لقد اثبتت عين جالوت شجاعة المماليك وقدرتهم القتالية وخططهم العسكرية الناجحة.
- لقد أدت انتصارات عين جالوت وتحول شخصية قطز الى بطل الفتوحات الإسلامية الى تحرك روح الانتقام والعداء في نفوس بعض المماليك، وخاصة الظاهر بيبرس الذي سارع الى اغتيال المظفر قطز والاستلاء على السلطة.
- لقد اكدت انتصارات عين جالوت ان انتصار المماليك على الصليبيين أيام لويس التاسع قبل عشر سنوات، لم يكن صدفة وانما تأكيد على دورهم في الدفاع عن العالم الإسلامي.
- إن موقعة عين جالوت تعتبر من الاحداث الهامة التي يجب استلها الدروس والعبر منها، حيث الإصرار على طلب الشهادة والإخلاص للوطن والأمة.

- إن ما حدث في عين جالوت هو عمل بطولي يحق للمماليك ان يفتخروا به كملمحة عسكرية سجلها التاريخ لهؤلاء المماليك الذين أسروا وعاشوا العبودية ولو بمفهومها الضيق.

8 التعليقات

1 - مملوك لغة اسم مفعول من ملك، ويطلق اسم مملوك على العبد الذي ملك ولم يملك أبواه أو سبي ولم يملك أبواه، ينظر ابن منظور جمال الدين، 2005م، لسان العرب ج6 تح عامر احمد حيدر، دار الكتب العلمية بيروت، ص101.

2 - نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل الايوبي ولد سنة 603هـ بالقاهرة ملك الديار المصرية سنة 637هـ وتوفي سنة 647هـ أثناء مواجهة الصليبيين، ينظر الذهبي شمس الدين، 1997م، سير اعلام النبلاء، ج16 دار الفكر للطباعة والنشر بيروت، ص 439.

3 - شجر الدر ام خليل من أصل تركي اشتراها نجم الدين أيوب وتزوجها، وهي اول سلاطين المماليك قتلت من طرف المماليك سنة 655هـ / 1257م بعدما قتلت زوجها الثاني المعز آيبك، ينظر ابن ثغري بردي جمال الدين، 1992م، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6 تح محمد حسين شمس الدين، ط1 دار الكتب العلمية بيروت.

4 - عين جالوت اسم لبلدة صغيرة في الريف الفلسطيني تقع بين سيان ونابلس، استولى عليها الروم وحررها صلاح الدين سنة 579هـ، ينظر ابن كثير ابو الفداء، 2004م، البداية والنهاية ج13 دار التقوى، ص 222.

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن العماد الحنبلي. (1991). *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*. بيروت : دار ابن كثير.
2. ابن خلدون عبد الرحمان. (2000). *ديوان العبر والمآل والخبر*. بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر.
3. أبو شامة المقديسي. (1962). *عيون الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصالحية*. (أحمد البيسومي، المحرر) دمشق: وزارة الثقافة.
4. أحمد عبد الكريم سليمان. (1984). *المغول والمماليك حتى نهاية عصر الظاهر بيبرس*. بيروت: دار النهضة العربية.
5. أحمد مختار العبادي. (1986). *قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام*. بيروت : دار النهضة العربية.
6. أسامة حسن. (2000). *طومان باي آخر سلاطين المماليك*. مصر: دار الامل.
7. الباز العربي. (د ت). *المماليك*. بيروت : دار النهضة العربية.
8. السيد عبد الفتاح عاشور. (1996). *الاوييون والمماليك في مصر والشام*. القاهرة: دار النهضة العربية.
9. السيوطي جلال الدين. (1968). *حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة*. بيروت : دار النهضة .
10. المنصوري بيبرس. (2001). *زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة*. القاهرة : عين للدراسات والبحوث الاسلامية .
11. تقي الدين المقريزي. (1997). *السلوك لمعرفة دول الملوك* (المجلد ج 1). (محمد عبد القادر عطا، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.
12. تقي الدين المقريزي. (1998). *الخطط المقريزية* (المجلد ج 2). (محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، المحرر) القاهرة: مكتبة مدبولي.
13. جلال الدين السيوطي. (1968). *حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة* (المجلد ج 2). (محمد أبو الفضل ابراهيم، المحرر) بيروت: دار احياء الكتب العربية.
14. جمال الدين ابنت ثغري بردي. (1992). *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة* (المجلد ج 7). (محمد حسين شمس الدين، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.
15. عبد الحكيم منصور. (1998). *السلطان سيف الدين قطز بطل عين جالوت وقاهر المغول*. دمشق: دار الكتاب العربي.

16. عبد الفتاح سعيد عاشور. (1976). *العصر المملوكي في مصر والشام*. القاهرة: دار النهضة العربية.
17. عبد الله الشرقاوي. (1996). *تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين*. (رحاب عبد الحميد القادري، المحرر) القاهرة: مكتبة مدبولي.
18. غوستاف لوبون. (2012). *حضارة العرب*. (عادل زعيتر، المترجمون) القاهرة: مؤسسة هنداي للتعليم والثقافة.
19. فاروق عثمان اباضة. (د ت). *أثر تحول التجارة العالمية الى رأس الرجاء الصالح على مصر*. القاهرة: دار المعارف.
20. فؤاد عبد المعطي. (1980). *المغول في التاريخ* (المجلد ج 1). بيروت: دار النهضة العربية.
21. قاسم عبده قاسم و علي السيد علي. (1996). *الايوبيون والمماليك التريخ السياسي والعسكري*. القاهرة: عين للدراسات والبحوث الاسانية والاجتماعية.
22. محمد علي الصلابي. (2009). *السلطان سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت*. القاهرة: مؤسسة اقرا.
23. مفيد الزبيدي. (2009). *موسوعة التاريخ الإسلامي العصر المملوكي*. عمان: دار أسامة.
24. موير وليام. (1995). *تاريخ دولة المماليك في مصر*. (محمود عابدين وسليم حسن، المترجمون) القاهرة: مكتبة مدبولي.
25. هاملتون أ، ب، جب. (1995). *صلاح الدين الايوبي، دراسات في التاريخ الإسلامي*. (يوسف ايش، المحرر) بيروت: بيسام للنشر والتوزيع والاعلام.

المراجع الاجنبية

1. M LE BARON, C. D. (1852). *Histoire des mongols depuis Tchinguiz-Khan jusqu'a Timour bey ou Tamerlan* (Vol. 1). Amsterdam: Frederik muller.
2. poole, S. l. (1925). *A history of Eggpt in the Middle Ages*. London.